بحث محكم | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 24 أبريل 2023

جدل تاريخ العلوم وعلم اجتماعها
حول مفهوم «الواقعة العلمية» لدى لوفيك فليك

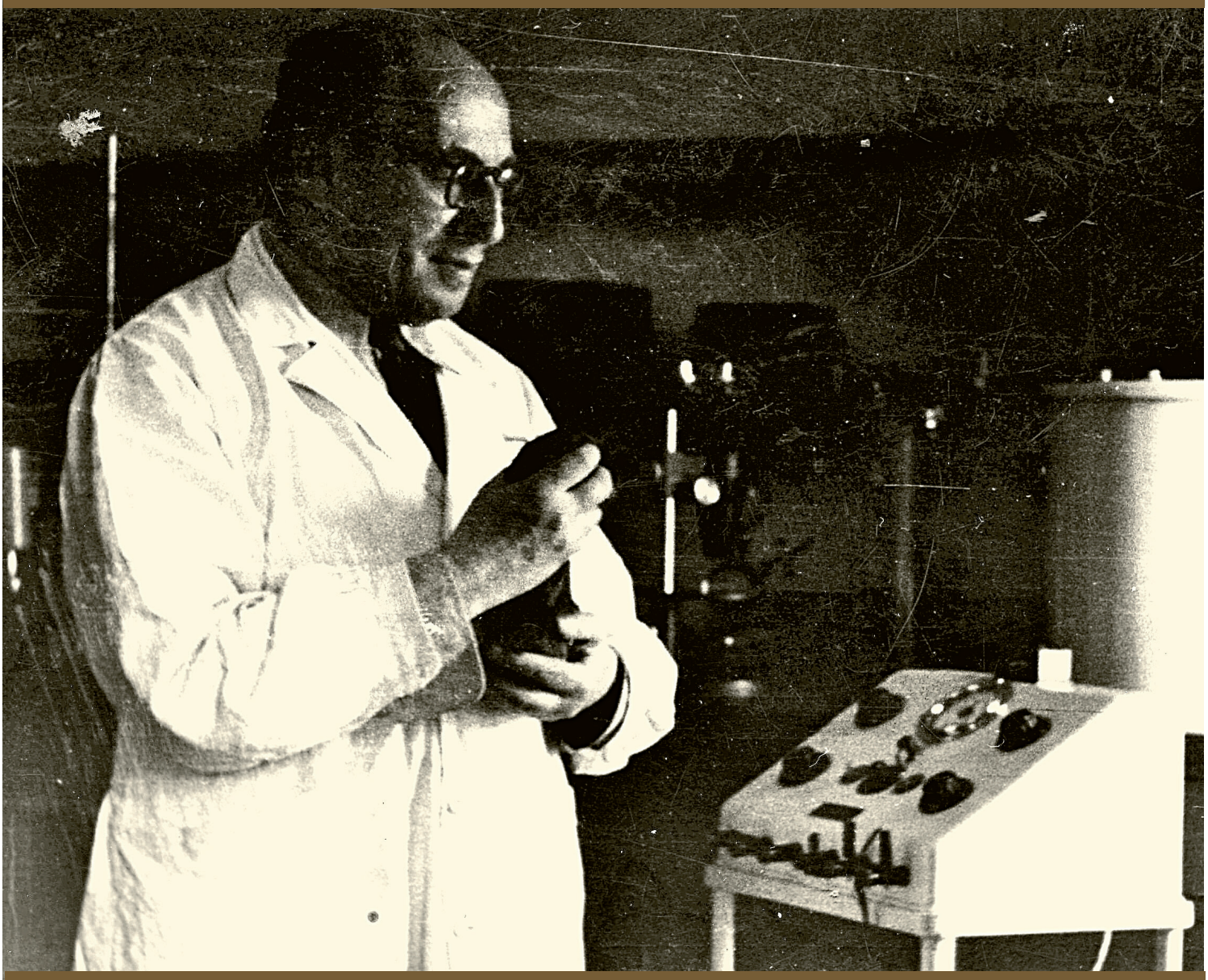

عائدة بنكريم
باحثة تونسية

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2023
All rights reserved © 2023

ملخّص

يعد لودفينك فليك من أبرز مُفكّري علم اجتماع العلوم لفترة ما بين الحربين. وبعد فترة عدم اعتراف علمي امتدّت أكثر من أربعين سنة تمّ إحياء هذا المُفكّر من خلال أهمّ مؤلّفاته **نشأة وتطوّر واقعة علمية** الذي نشره سنة 1935، إذ تمت ترجمته إلى الإنجليزية عام 1979 ثمّ إلى الإيطالية والإسبانية والروسية وأخيرا إلى الفرنسية سنة 2005. ويوجد من بين مؤرّخي العلوم من يتحدّث على «موجة فليك» أو «نمط فليك»، وقد اقترن اسم فليك بتوماس كون الذي اعتبر أنّ فليك مدين له بالاعتراف العلمي، وبسبب التشابه بين فكرة «العقل الجمعي» التي استخدمها فليك لتفسير نشأة وتطوّر «الواقعة العلمية» ومفهوم «البارادیغم» الذي طوّره توماس كون يتحدّث البعض عن «نظرية فليك كون» التي تمثّل أساس البنائية في علم اجتماع العلوم. غير أنّ برونو لاتور عالم اجتماع العلوم البنائي، في مقدّمة الترجمة الفرنسية لكتاب فليك أثار بعض النقاط المثيرة للجدل حول علاقة كون بفليك، واعتبر أنّ كون قلّل من قيمة فليك ليستحوذ على الأسبقية في التفسير الاجتماعي للعلوم. نسعى في هذه الورقة رصد أهمّ المجادلات التي أثارها كلّ من كون ولاتور في تقديمهما لكتاب فليك، وهي محاولة لوضع تلك المجادلات في سياقها التخصّصي والتاريخي والأكاديمي الذي ظهر ضمنه فليك.

غرضنا إذن، في هذه الورقة تسليط بعض الضوء على هذا العالم الذي بقي مغمورا لمدة لا تقلّ عن أربعين عاما، ولم يحظ بالاعتراف العلمي كما معاصريه من فلاسفة العلوم ومؤرّخيها، وحين توفّر ذاك الاعتراف ازداد الأمر تعقيداً بجعله موضوعا سجاليا بين تخصّصات معرفية متنافسة على الاعتراف بالأسبقية في بلورة نظرية علم اجتماع العلم.

تقديم:

يُصنّف لودفيك فليك (Ludwik Fleck) (1896-1961) ضمن فلاسفة العلوم الكلاسيكيين ذوي التوجّهات السوسيولوجية، وهو طبيب الجرثوميات ومدير لمختبرات التحاليل الجرثومية في مستشفى مدينة لفوف (Lwow) البولونية. وعُرف فليك من خلال كتابه المُعنون **نشأة الواقعة العلمية وتطوّرها** *(Entstehung und Entwicklung einer wissenschaftlichen Tatsache (Bâle, 1935*. والمفارقة أنّ رغم أهمية هذا الكتاب، فإنه لم يحْظ «بالاعتراف» إلا مُتأخّرا (سنة 1962)، على يدَيْ توماس كون (Thomas Khun) الذي أشاد به في كتابه الشهير **بنية الثورات العلمية**. ويقول كون مُوضّحاً سياقات اكتشافه لكتاب فليك أنه: «لولا هذا الاستكشاف [يقصد إقامته الاستكشافية التي دامت ثلاث سنوات في جمعية زملاء هارفارد] لما استطعت أن ألتقي على غير توقّع بتلك الدراسة التي تكاد تكون مجهولة، والتي كتبها لودفيك فليك وعنوانها **نشأة الواقعة العلمية وتطوّرها** (بازل 1935)، وهي دراسة تستبق الكثير من أفكاري. جعلتني دراسة فليك وكذا ملاحظة أبداها زميل آخر (...) أدرك أنّ تلك الأفكار ربما كانت بحاجة إلى أن تعرض في إطار سوسيولوجيا الجماعة العلمية. (...) وإذا كان القارئ لن يجد فيما يلي سوى إشارات قليلة إلى أي من هذه المؤلّفات، فإنني مدين لها بأكثر ما أستطيع الآن أن أقدّمه أو أقيمه».[1] وبعد عشرين سنة تقريبا من صدور **بنية الثورات العلمية** تُرجم كتاب فليك سنة 1979 إلى الإنجليزية بإشراف روبرت كينغ مرتون (R.K.Merton) وتوطئة كتبها توماس كون؛ [2] أي برعاية اثنين من أبرز مؤرّخي العلوم وعلماء اجتماعه الأنجلو- سكسوني (الأمريكي) المُعاصر. وقد تمّت إعادة نشر الكتاب بالألمانية سنة 1980، ليُترجم بعد ذلك إلى الروسية والإيطالية والإسبانية. ولم يُترجم إلى الفرنسية إلاّ سنة 2005 بتوطئة كتبها برونو لاتور (Bruno Latour) عنوانها[3*] «انتقال السفلس (الزهري) - تقاسم الموضوعية».[4]

يُورد لاتور في مقدّمة الترجمة الفرنسية إشارات لبعض مظاهر اللا-عدالة التي كان ضحيتها فليك فيقول: «إنّ السياق الفكري والاجتماعي لصدور الترجمة الفرنسية، التي تختلف عن سياقات الترجمة الأولى في أمريكا، ستُحقّق العدالة لهذا الرّائد الذي مرّ على ظهوره (تغييبه) سبعة وستون عاما».[5] وهي

1- توماس كون، **بنية الثورات العلمية**، ترجمة، شوقي جلال. عالم المعرفة سلسلة كتب ثقافية، 1992. ص. 21

2- Ludwik Fleck, *Genesis and Development of a Scientific Fact*, Edited by Thaddeus J. Trenn and Robert. K. Merton: (trans.) Fred Bradley and Thaddeus J. Trenn ; Foreword By Thomas Khun, Chicago: University of Chicago Press, 1979

3* جميع ما هو بين ظفرين من كلام كون ولاتور وفليك ترجمتها من عندنا. وقد اعتمدنا الترجمة الإنجليزية بالنسبة إلى مقدّمة توماس كون وسيكون الإحالة في الهامش إلى Foreword، والترجمة الفرنسية بالنسبة إلى مقدمة برونو لاتور وستكون الإحالة إلى Preface à Fleck

4- B. Latour, « Transmettre la syphilis, partager l'objectivité », préface à L. Fleck, *Genèse et développement d'un fait scientifique*, (trads.) Nathalie Jas -préface de Ilana Löwy, postface de Bruno Latour. Paris: Les Belles Lettres, 2005 http://www.bruno-latour.fr/sites/default/files/P-99%20Fleck-postface.pdf

5- Latour, Preface à L. Fleck, *Op., cit.,* p.1

إشارة عنت موقف توماس كون، ونبّهت إلى أنّ هذا الأخير قلّل من أهمية فليك ليُعطي لنفسه الأسبقية في اكتشاف «الطبيعة الاجتماعية للنشاط العلمي»، وليؤكّد أنّه أوّل من استعمل المنهج الطبيعي لفهم المعارف الخاصة بثقافات مختلفة، باعتبارها ظواهر تجريبية. ويبدو من خلال هذه الإشارة أنّنا نواجه السؤال الصعب الذي طرحه مرتون المتعلّق بالاعتراف بـ«الأسبقية» في الاكتشافات العلمية[6] مطبقة على حالة كون وفليك، إذ بشكل عام كثيرا ما تحصل مشاحنات بين العلماء حول الأسبقية في الاكتشاف العلمي، والتاريخ مليء بهذا النوع من المشاحنات. لكن عادة ما تحصل هذه المنازعات بمناسبة تحقيق اكتشافات متزامنة، غير أنّ التزامن، في حالة كون وفليك، لا يفسّر بذاته سوى القليل. فقد لاحظنا اتساع المواقف المتعارضة حول ريادة فليك وأصالة كون، إذ لا يرى البعض شيئا في عمل كون غير موجود في مؤلّف فليك. وذهب البعض الآخر إلى حدّ القول إنّ فليك متفوّق على كون ليس من الناحية الوضعية المنطقية فحسب، وإنما أيضا من الناحية المعرفية (الإيبستيمية).[7] وعلى العكس من ذلك، يرى آخرون أنْ لا شيء مثير للاهتمام في عمل فليك، الذي لم يكن، على حدّ قولهم، جزءًا من مجتمع فلاسفة ومؤرخي العلوم، ولم يكن قادرًا حتى على تطوير المفاهيم التي اقترحها، ولكنهم يجدون لها معنى حقيقيًا فيما يقترحه كون.[8] وسيتعقّد النقاش أكثر ليس فقط؛ لأنه يتعلّق بفليك وكون، بل لأنّه نقاش تخصّصي بين فلسفة وتاريخ العلوم من جهة، وسوسيولوجيا العلوم من جهة ثانية. وقد حدث أن كان مغزى العمل السوسيولوجي ومدى ملاءمته لدراسة العلم، موضع تساؤل من قبل فلاسفة ومؤرّخين وممثلين لعلوم الطبيعة أيضا، كما هو الحال لدى كون حيث يقول في مقدّمة **بنية الثورات العلمية** «أثار كلّ من التاريخ والتعرّف المباشر شكوكي في أنّ من يمارسون العلوم الطبيعية لديهم إجابات على هذه المسائل [يقصد علم العلم] أشدّ رسوخا وأكثر ديمومة وتحديداً ممّا لدى زملائهم في مجال العلوم الاجتماعية».[9] وفي المقابل انتقد لاتور في مقدمة الترجمة الفرنسية لكتاب فليك، بشدّة استراتيجية الاستيعاب والادماج التي استعملها كون مع فليك، مُقدّما هذا الأخير على أنّه المكتشف الشرعي لما سيُطلق عليه في مرحلة مُتقدّمة علم اجتماع العلوم البنائي؛ ويذهب لاتور إلى حدّ اتهام كون بأنّه جعل من «العقل الجمعي» تصوّرا أخرقا ليضع مكانه تصوّره الشهير عن «البارادیغم».[10] وممّا شرعن ادعاءات لاتور أنّ كون بدا

6- Robert. King Merton, « Priorities in Scientific Discovery: A Chapter in the Sociology of Science », *American Sociological Review*, Vol. 22, n°. 6 (1975).

7- D. Wittich, « On Ludwik Fleck's use of social categories in knowledge », in R.S. Cohen, T. Schnelle, *Cognition and fact. Materials on Ludwik Fleck*, p. 317 ; Babich, BE, 2003, « Du « Denkstil » de Fleck au paradigme de Kuhn: schémas conceptuels et incommensurabilité», *Études internationales en philosophie des sciences*, 29(1), 1–39

8- J. Harwood, « The Fleck affair: Fashions v. Heritage », *Inquiry*, 34, 4, 1991, p. 496; LÖWY, « Fleck, Kuhn, and Stent. Looose reflections on the notion of prematurity », *in* E. B. Hook (ed.), *Prematurity in scientific discovery: on resistance and neglect*, Berkeley, 2002.

9- **بنية الثورات العلمية**، مصدر سابق، ص.22.

10- Latour, Preface à L. Fleck, *Op., cit.,* p.2.

متردّدا تجاه فليك، حيث تحوّل «العقل الجمعي» من فكرة مُنفّرة في مقدّمة الترجمة الإنجليزية سنة 1979 إلى فكرة بغيضة في المقابلة البيوغرافية سنة 1995.

نسعى فيما سندلي به أدناه إلى إلقاء بعض الضوء على المجادلات الأساسية التي أثيرت في مقدّمة كون للترجمة الإنجليزية (1979) وخاصة تلك التي أعاد إثارتها لاتور في مقدّمة الترجمة الفرنسية (2005) مشيرا إلى الالتباس الدِّلالي الذي حصل لكون في قراءته لفليك، وهي مجادلات لها قيمتها ليس فقط من زاوية الاهتمام بأسبقية فليك أو أصالة كون، وإظهارها للتوتّرات بين تاريخ وفلسفة العلوم وسوسيولوجيا العلوم، وإنما أيضا من زاوية إبرازها لأهمية المجادلات التي أثارها كتاب فليك، والتي وإن تركّزت بشكل رئيس حول مسألة صلة الربط بين «العقل الجمعي» (Thought Collectives) ونشأة وتطوّر «الواقعة العلمية»، فإنها أثارت مسائل منهجية تتعلّق بدراسة العلوم سوسيولوجيا.

I. برونو لاتور وتوماس كون: قارئان لكتاب فليك

برونو لاتور، هو فيلسوف وعالم اجتماع وأنثروبولوجي فرنسي، ولد سنة 1947 وتوفي سنة 2022. تمحورت أبحاثه حول عالم «الحداثة» واشتغل على مظاهر انحرافاته وتناقضاته وتداعياتها على المُجتمعات المُعاصرة. درّس فلسفة العلوم، وأسّس سوسيولوجيا العلوم والتقنيات بمفاهيم ومنهجيات يزعم أنّها أكثر مواءمة للتحوّلات التي تشهدها مُجتمعات «الشبكات الرقمية». اشتهر بنقده لثنائيات موضوعي-ذاتي، وثقافي-طبيعي، وعُرف بدفاعه على النسبية عبر استعماله لمبدأ التناظر المُعمّم ونحته مفهوم «العلم قيد الاشتغال». وضع إلى جانب ميشال كالون (Michel Callon) وجان لاو (John Law) نظرية الفاعل-الشبكي (ANT)، مقترحًا بذلك مُقاربة بنائية تستمد أسسها المنهجية من التقليد الاثنوميثودولوجي لهارولد غرانفلك (Harold Garfinkel) وإطارها النظري من فلسفة غابريال تارد(Gabriel Tarde) وميشال سار (Michel Serre).

ويُعدّ توماس كون من أبرز علماء تاريخ العلوم وفلاسفته الأمريكيين المُعاصرين، ولد كون سنة 1922 وتوفي سنة 1996. ابتدأ حياته الأكاديمية بدراسة الفيزياء ثمّ انتقل إلى تاريخ العلوم ومن ثمّة إلى فلسفة العلوم. وكان له تأثير كبير على النظرية العلمية الاجتماعية في دراسة العلوم، إذ عُرف بمؤلّفه الشهير **بنية الثورات العلمية** الذي صدر سنة 1962. وقد كانت مقاربة كون قائمة على فكرة أنّ الباراديغم هو الإطار المرجعي للجماعة العلمية في مرحلة تاريخية مُحدّدة، وأنّ للباراديغم باعتباره ما يمتلكه عناصر جماعة علمية من أمر مُشترك، تأثير اجتماعي ذو مستويين: ضبط وتوزين السلوكيات العلمية من جهة، والتمييز التفاضلي بين الجماعات العلمية الفرعية من جهة أخرى. وهو أمر يمكن شرحه من خلال التجربة، وبهذا

المعنى فإنّ الباراديغم إذا ما قورن بمنظور فليك فهو كما وضّح لاتور، في مقدّمة الترجمة الفرنسية، نُسخة مُعقلنة لفكرة «عقل جمعي» يحدّد «أسلوب تفكير» جماعة علمية ما في مرحلة زمنية مخصوصة.

1) فليك رائدا أم مكتشفا لعلم اجتماع العلم البنائي؟

إنّ أي فرع علمي، يُفرز خلال تطوّره، وعموما من خلال كتابات الفاعلين الرئيسيين فيه، تصوّرات مختلفة حول تاريخه الخاص. وكثيرا ما يقع تهميش محاولات فردية أو جماعية سواء لأنها كانت عابرة فتحصل على شهرة ضئيلة على المستوى العالمي أو حتى المحلّي، أو لأنّ أصحابها كانوا معزولين ولم يكونوا أعضاء في جماعات علمية لها منظورية. وتأخذ اللامساواة الاجتماعية بين العلماء شكلين: مقابل نوعية عمل مماثلة سينال عالم ذو شهرة اعترافا أسرع مما سيناله عالم شهرته أقلّ؛ وعلى العكس أيضا، فإنه مقابل نوعية عمل مماثلة، فإنّ عالما ينتمي إلى جماعة ذي مقام عالٍ يستطيع أن يبني لنفسه سمعة أسهل ممّا يستطيع عالم ينتمي إلى جماعة من مقام أقلّ، وبعبارة أخرى: «من يَملك يُعطَى ويُزاد، ولكن من لا يملك، حتى ما يملكه يؤخذ منه». وبدا لنا أنّ هذه العبارة تُلخّص وضعية فليك عالم الجرثوميات البولندي اليهودي الذي وجد نفسه خلال الحرب العالمية الأولى في معسكر أوشفيتس (Auschwitz) يكتب نصوصا فلسفية وإبيستيمية مستوحاة من تجربة حياتية قضاها في مختبر المعسكر حيث أجبره النازيون على العمل على لقاح التيفوس (typhus) ليكون بعد ذلك من الناجين القلائل من المحرقة. وهاجر فليك وعائلته سنة 1957 إلى إسرائيل وتوفّي هناك سنة 1961. ولعلّ السياق التاريخي الذي تبلورت فيه أطروحات فليك، والمحيط الذي كان يُقيّد نشاطه بعدد من الاكراهات، واللغة التي كان يكتب بها (البولندية) شكّلت عائقا أمام وصول فليك للاعتراف العلمي. فقد بقي خارج الدوائر الجامعية بسبب مشاعر القومية والصفاء العرقي تجاه اليهود، فاشتغل مديرا لمختبر خاص إلى حدود 1939. وبعد انتهاء الحرب وعودته إلى بولندا أدلى فليك سنة 1948 بشهادته في محاكمات نورمبرغ (Nuremberg) للأطبّاء الألمان الذين استعملوا المعتقلين في المعسكرات النازية لإجراء تجاربهم العلمية. ولذا، فإنّ فليك لم يأخذ نفس المسار الذي أخذه مُعاصروه من علماء العلم: الألماني كارل بوبر (Karl Popper) والفرنسي غاستون (Gaston Bachelard). وكأنّ عمل فليك أتى مُبكّرا جدّا فلم يكن ممكنا الاعتراف بمساهمته في ذاك الوقت. وحين توفّر ذاك الاعتراف المتأخّر، فإنّ كون قدّم نفسه وكأنّه مدين لفليك، فوضعه في موقع المثير للاهتمام، ولكن في نفس الوقت غير المريح للرائد الذي حقق اكتشافات لن يستفيد منها غير آخرين في سياق مختلف تماما.

سيكون الاهتمام مُنصبّا على ذاك الذي هو الأشهر والأبرز أي ذاك المعروف من جماعته، والذي ستنتسب إليه قيمة الاكتشاف العلمي. ومع ذلك نستطيع القول إنّ محاولة لودفينك فليك لمقاربة العلوم سوسيولوجيا كانت ذات دلالة؛ ذلك أنّ فليك ينطلق في عمله من تساؤل أصيل حول طبيعة «الواقعة العلمية»؛ فيكتب في استهلال مؤلّفه الصادر عام 1935: «الواقعة هي شيء يُفترض أن يكون محدّداً، دائما،

ومُستقلاً عن كلّ تفسير ذاتي».[11] ثمّ ينبّه إلى «إنّ الأمور هي أكثر تعقيداً مما تبدو. وسوف نقترح دراسة واقعة مأخوذة من حوليات الطبّ نراها مناسبة للمعاينة؛ لأنها غنية جدّا في بعديها التاريخي والمضموني، لكنها لم تأخذ حظّها من الدراسة الايبستيمولوجية».[12] يُقارب فليك العلماء على طريقة الأنثروبولوجيين حين يواجهون معارف مجتمعات «بدائية»؛ ويحاول تفسير تأثير «أساليب التفكير» السائدة على نتائج أبحاثهم. وكما ورد في مقدّمة الترجمة الفرنسية فإنّ فليك يُعتبر في نظر علم الاجتماع البنائي للعلوم ليس فقط رائدا، وإنما أحد أوائل ممثلي التيار البنائي في علم الاجتماع وفلسفة العلوم؛ ذلك أنّ لاتور في انسجام مع توجّهاته الإمبيريقية والبنائية، يعتبر أنّ فليك دشّن بكتابه الذي ألّفه عشية الحرب العالمية الأولى ما يسمّى اليوم بعلم اجتماع العلوم أو بعلم الاجتماع التاريخي للعلوم، فهو على حدّ تعبيره «رائدا وليس فقط مُكتشفا لهذا الاختصاص المعرفي».[13]

وعلى الرغم من أنّ بعض الأفكار التي يُقدّمها فليك نلقاها هنا وهناك لدى البعض ممّن قاموا في الفترة نفسها، أو قبل ذلك بدراسة العلاقات التفاعلية بين العلم والمجتمع؛ مثل: هسّن (Hessen) وبرايس (Price) وزنانييكي (Znaniecki) وشيلر (Sheler) وبيتيريم (Pitirim) وسوروكين (Sorokin)... إلخ. إلاّ أنّ لاتور يؤكّدّ على ريادة فليك في علم اجتماع العلوم، ويعتبر أنّ «فليك هو أوّل من أعطى تفسيرا اجتماعيا للعلم، مُطبِّقا على العلوم ما كان قد فعله ليفي-بريل ودوركهايم على أشكال التفكير البدائي، ساحبا بذلك التفكير العقلاني إلى مجالات التحليل السوسيولوجي الذي كان علماء الاجتماع في ذلك الوقت لا يجرؤون على ممارسته إلاّ على الأفكار القديمة واللا-عقلانية»[14]، ولعلّ القصد هنا ريادة في طريقة تصوّر موضوع علم اجتماع العلوم، حيث يشير لاتور إلى التقارب بين تصوّر فليك للواقعة العلمية وتصوّرات سوسيولوجيا المعرفة العلمية لمرحلة ما بعد سبعينيات القرن العشرين في أوروبا؛ لقد شكّل مطلع السبعينيات بالفعل بروز منظورات بحثية مُختلفة عن تلك التي ابتدأت في الثلاثينيات وخاصة التراث المرتوني الذي احتلّ موقعاً شبه احتكاري، أكان ذلك في الاصطلاح المؤسّسي أم الفكري، إلى حدود الستينيات. ويوضّح لاتور وجه التشابه قائلا «يطوّر فليك برنامجا بحثيا يشبه تماما «البرنامج القوي» الذي صاغه دافيد بلور (David Bloor) وباري بارنز (Barry Barnes) وهاري كولنز (Harry M. Collins) وستيفن شابين (Steven Shapin) وآخرون».[15] فكلا البرنامجين، بحسب لاتور، يؤكّد على أهمية الممارسة -بما في ذلك الممارسة النظرية-عوضا عن الربط بين المفاهيم بعضها بالبعض الآخر. ويستشهد بقول فليك: «لا أقبل الرأي القائل بأن العمل الوحيد لنظرية المعرفة، أو أهم عمل لها، هو فحص قدرة المفاهيم على تكوين أنظمة

11- L.Fleck, *Genesis, Op., cit.*, Prologue. xxviii

12- *Ibid.,* xxvii

13- Latour, Preface à Fleck, *Op., cit.,* p.1

14- *Ibid.*, p.2

15- B. Latour, Préface à L. Fleck, *Op., cit.,* p2

أو روابط والعمل على الحفاظ عليها».[16] ويذهب لاتور إلى حدّ القول بوجود اهتمام لدى فليك بالعلم، وهو يُصنع مقابل العلم الذي يُدَرَّس. ولعلّ هذا ما جعله (فليك) يرفض المنظور الاستذكاري في التاريخ الذي يدفع نحو السخرية من أنظمة التفكير القديمة (أو البدائية). وبالفعل، فإنّ أسس تفكير فليك التي يستمدّها من الفلسفة الكيميائية هي: المعاينة، والتجربة. فمن خلال المعاينة تنطبع الوقائع بوضوح ودقة في الذهن، ومن خلال التجريب تُكتشف وقائع جديدة.

إذن، في محاولته تأكيد أسبقية فليك على كون يستهلّ لاتور تقديمه للترجمة الفرنسية بقوله: «إنّه كتاب مدهش! إنه يشبه موبي-ديك (Moby Dick): داهمنا من زمن آخر، زمن تفصلنا عنه عقود، اختفى في صمت ثمّ ظهر فجأة حيّ ومُنعش، يُرغي ومُغلّف بالصَّدف، خطير بجِدَّتِه، قادر بضربة قوية من رأسه العنيدة، تماما مثل الحوت الأبيض الشهير، على إخفاء أكثر من سفينة مُحمّلة بمؤرّخي العلوم. إنّه ليس بحاجة لوجود الربّان آشاب (Achab) في شخص توماس كون الذي أراد أن يجعله أليفا لكنه أبداً لم ينجح».[17] ويبدو أنّ لاتور لديه اعتقاد راسخ بوجود إرادة مُضمرة لتكريم فليك وإعادة دفنه بجعله مُجرّد مقدّمة بسيطة للتاريخ الاجتماعي للعلوم، مُبيّنا كيف أنّ هؤلاء (يقصد كون) قلّلوا من شأن التصوّر الذي قدّمه للعلوم باعتبارها وقائع مبنية اجتماعيا، ويقول بعبارة تهكّمية: «تقديم لمحات بسيطة ومشوّشة بلغة ألمانية تقنية غير واضحة، لما أدركه آخرون لاحقا بوضوح وكتبوه باللغة الإنجليزية. «العقل الجمعي» ليس سوى تصوّرا غير موفّق لمفهوم «الباراديغم» الشهير».[18] وهذه أيضا إشارة إلى توماس كون الذي في مقدّمة الترجمة الإنجليزية لكتاب فليك يقول: «لست مُتأكّدا أنني استعرت منه شيئا ملموسا، على الرغم من أنني كنت ربما يجب أن أقوم بذلك».[19] ويعزو ذلك إلى لغة فليك الألمانية المليئة بالمصطلحات التقنية.[20]

لم يُخْفِ كون في بداية الأمر اهتمامه الشديد بما جاء في كتاب فليك، حيث يقول في مقدّمة الترجمة الإنجليزية (الأمريكية): «أدركت على الفور أن الكتاب الذي يحمل هذا العنوان من المرجح أن يتحدث عن اهتماماتي الخاصة. وسرعان ما تأكّد لي هذا الحدس بعد قراءة الكتاب»[21]، ويضيف مُوضّحاً سياقات ترجمة الكتاب «فقد تحدّثت مع عدد من الأصدقاء على هذا المشروع منذ قابلت هذا الكتاب أوّل مرّة (...) تَرْجَمَته لا تعني منحه جمهوراً باللغة الإنجليزية... وإنما بالأحرى منحه جمهوراً بشكل مطلق (...) إنّني مدين له بكثير من النواحي التي لا يمكنني تحليلها وتقييمها بشكل واسع في الوقت الحالي».[22]

16- L. Fleck, *Génese, Op., cit.,* p.47

17- Latour, Preface à Fleck, *Op., cit.*, p.1

18- *Ibid.*

19- Khun, *Foreword*, *Op., cit.*, p. ix.

20- *Ibid.,* p. ix.

21- *Ibid.,* p. viii.

22- *Ibid.*, p. vii.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ كون تعرّض إلى فليك في ثلاث مناسبات: الأولى في مقدمة **بنية الثورات العلمية** (1962)، والثانية في توطئة الترجمة الإنجليزية (الأمريكية) لكتاب فليك (1979)، والثالثة في مقابلة البيوغرافيا التي أجريت معه قبل وفاته بسنة وتمّ نشرها في كتابه «الطريق منذ البنية. مقالات فلسفية» (1970-1993) *The Road Since Structure. Philosophical Essays*. يشير كون إلى فليك في **مقدّمة بنية الثورات العلمية** ضمن قائمة من المفكّرين الذين كان لهم تأثير، إلى هذا الحدّ أو ذاك، على مسار بحثه، وكان أغلبهم من المُتخصصّين في تاريخ العلوم. وذكر بعض الأسماء التي لم يكن لها علاقة مباشرة بالاختصاص، لكنه يقول أنّه اكتشفها عن طريق الصدفة بفضل إقامته الاستكشافية التي دامت ثلاث سنوات في جمعية زملاء هارفارد (Harvard Society of Fellows). ويتوسّع كون في مقدّمة الترجمة الإنجليزية لكتاب فليك في الحديث على سياقات ذاك الاكتشاف، معيداً تذكير القارئ بأنها كانت عن طريق الصدفة عام 1949 أو 1950 في ملاحظة على هامش كتاب رايشنباخ (Reichenbach). ومن بين الأشياء التي ذكرها كون أنّه عندما أعاد قراءة الكتاب، بعد عشرين سنة وكما لم يفعل من قبل، وجد أنّ الكثير من الأفكار التي اشتغل عليها وبيّنها من وجهة نظره كانت موجودة في كتاب فليك.[23] ويُوضّح قائلا «سيجد القارئ الكثير من نقاط التشابه، وعلى الرغم من مرور الكثير على نشر الكتاب إلاّ أنّه لايزال منجماً غنيا بالدروس. ومع ذلك، فإنّ التصوّر الذي يقدّمه فليك لا يخلو من مشاكل أساسية، بالنسبة لي، ومنذ القراءة الأولى، تتمحور حول «العقل الجمعي».[24] وفي المقابلة البيوغرافية لسنة 1995 لمّا طرح عليه محاوروه سؤالا يتعلّق بتأثير روبرت كنغ مرتون، أعاد كون الحديث الذي ذكره في المقدمة الإنجليزية لكتاب فليك على أنّه «اكتشف بياجيه (Piaget) عن طريق الصدفة على الهامش في كتاب مرتون الشهير: **العلم، التكنولوجيا والمجتمع في إنجلترا القرن السابع عشر**».[25] ليعود مباشرة للحديث على فليك دون حتى أن يُطرح عليه السؤال ويقول «الحديث على نشأة وتطوّر واقعة علمية يتعارض مع المفهوم الأكثر شيوعا لما هو واقعة علمية».[26] ويتابع قائلا: «إنّ فليك ليس الشخص الذي علّمني الكثير، ولكن كان لديه دور مهمّ جدّا يتمثّل في «الدعم»، حيث جعلني أنتبه إلى أنّ هناك من يفكّر في العديد من المسائل مثلي ويفكّر في المادة التاريخية مثلي تماما».[27]

بتشديده على دور الدعم والتعزيز الذي منحته إياه قراءة فليك، يبدو كون وكأنّه يريد تأكيد أصالة بحثه وأسبقيته في اكتشاف نظريته التي لاقت نجاحا لدى عدد كبير من فلاسفة العلوم وعلماء اجتماعه، وخاصة للمكانة التي توليها للجماعة العلمية، باعتبارها الوحدة التي على قياسها يجب أن نتفكّر تطوّر النظريات العلمية وتقويمها. بينما يرى لاتور أن الباراديغم هو اقتباس لفكرة «العقل الجمعي» التي طوّرها فليك

23- *Ibid.*, p. ix.

24- *Ibid.*, p. x.

25- *Ibid.*, p. vii

26- T. S. KUHN, *The road since structure. Philosophical essays, 1970-1993*, Chicago-London, 2000, p. 282

27- Ibid., p. 282

في كتابه **نشأة وتطوّر الواقعة العلمية**. ومع ذلك، فإنّه لا يجوز لهذا التماثل الشكلي أن يُخفي ما يمايز بشكل جوهري بين فليك وكون. وهذا الفارق يمكن تلخيصه في قلق كون من استعمال فليك لمفهوم «العقل الجمعي» وخاصة لحمولته السوسيولوجية، فيقول: «لم أكن يوما مرتاحاً لمفهوم العقل الجمعي».[28] وبشكل أدقّ، فإنّ فليك وكون لا ينظران إلى تأثير الاجتماعي على المعرفة بنفس الطريقة.

2) الأطروحة الأولى لفليك: «العقل الجمعي» الناقل لتطوّر الواقعة العلمية

يشير كون في مقدّمة الترجمة الإنجليزية إلى الطبيعة المُنفّرة لـ «سوسيولوجيا العقل الجمعي» خاصة فيما يتعلّق باللجوء إلى قاموس علم النفس-الفردي وتفسير الجماعي بمصطلحات فردية بحتة. ما يزعج كون على حدّ تعبيره «ليس الطبيعة الخيالية لمفهوم «العقل الجمعي»، وإن كنت أعتقد أنها كذلك، وإنما أجد أنها فكرة مضلّلة ومصدرا للتوترات المتكرّرة في نصّ فليك».[29] كما يبدي كون أسفه لاستخدام فليك مصطلحات خاصة بخطاب الفردي مثل «تناغم الأوهام» لتوصيف سلوك المجموعات. ويبدو أنّ الاجتماعي، بالنسبة إلى كون، يمثّل عائقا أمام تطوّر المعرفة بينما يرى فليك عكس ذلك. فبحسب كون، «عندما يتحدث فليك على نوع من «تناغم الأوهام»، فهي «استعارة مُضرّة؛ لأنها تُعزز الانطباع بأنه في غياب الضغط الاجتماعي، يكون من الممكن تجنب الوهم».[30] غير أنّه، بالنسبة إلى فليك، لا يوجد شيء صادم في مفهوم «تناغم الأوهام»؛ فهو يعني من خلال هذه الفكرة أن «تطوير المعرفة تجعل من يطوّرها يتحوّل بطريقة منسجمة مع المعرفة التي هو بصدد اكتسابها (...) مما يولّد قابلية تطبيق النتائج العلمية، على الاعتقاد الراسخ في حقيقة ما ستوجد بشكل مستقل عنّا».[31] ويذهب فليك أبعد من ذلك ليقول إنّ «النشاط الفكري هو النشاط البشري الأكثر تكيّفا اجتماعيا».[32]

ولكنّ لاتور يتعارض مع كون حول قراءته لفكرة «العقل الجمعي» التي استخدمها فليك لتفسير تأثير الاجتماعي على العلم. ويوضّح أنّ التناقض الذي قد يبدو من الوهلة الأولى لمن يقرأ فليك، يكمن في فكرة «العقل الجمعي» التي عبّر عنها فليك بقوله: «ما لا يقلّ على ثلاثة أرباع محتوى العلم، أو كلّه ربما، مشروطٌ ويمكن تفسيره من خلال تاريخ الأفكار وعلم النفس وعلم اجتماع التفكير».[33] كما يقول في موقع آخر أنّه «يوجد نوع من الخوف الخرافي الذي يمنعنا من أن ننسب إلى العقل الجمعي ما هو أكثر حميمية في شخصية الانسان، القدرة على التفكير».[34] ويتساءل لاتور «عن هذه المفارقة التي تجعل مُخترع «العقل

28- Khun, *Foreword*, *Op., cit.,* p.x.

29- *Ibid.,* p. x.

30- Khun, *Foreword*, *Op., cit*., p. X.

31- Fleck, *Genisis, Op., cit.*, p.39-41

32- *Ibid.,* p.42

33- *Ibid.,* p.38

34- *Ibid.,* p.39

الجمعي» يُلحق بنفسه هكذا إنكار! إنّ تجديداته في علم اجتماع وتاريخ العلوم تُثبت بما يكفي أن الفرد بعبقريته الخاصة، يمكن أن يكسر السيطرة الضارة لإطار تفكير جمعي».[35] غير أنّ حلّ هذا التناقض يمرّ، بحسب لاتور، عبر فهم ماذا أراد فليك قَوْلَهُ حقيقةً: «إنّ هذه هي الأصالة الكامنة في كتاب فليك؛ أصالة مثيرة للإعجاب بعد ما يقارب ثلاثة أرباع القرن: لا يظهر الاجتماعي أبدًا على أنه ما يُلْغِي، ويحدّ، ويذبل، ويقلل من جودة النتائج العلمية، ولكن على العكس تماما، فهو ما يجيز لها، ويسمح لها، ويجعلها ممكنة، ويؤكّدها. هذا هو سوء الفهم برمته حول فكرة «العقل الجمعي». فقد اخترع فليك، وهو في حالة من التردّد ما يمكن تسميته التجريبية الجماعية (empirisme collectif). لماذا من الضروري الحديث عن الجماعي في العلم؟ لأنه سيكون هناك دائمًا سياق اجتماعي مُشكِّل مسبقًا بالإضافة إلى الإطار المعرفي الصارم والبيانات الموضوعية. سيكون هذا هو موقف بيار بورديو، على سبيل المثال، الذي اختصر التفسير الاجتماعي للمعرفة في «السياق»، وترك محتوى المعرفة للعلماء أنفسهم. على العكس من ذلك، لا يولي فليك سوى القليل من الاهتمام للسياق الاجتماعي (ملاحظة واحدة من ثلاثة أسطر عن الحرب العالمية!): لشرح المحدّدات الاجتماعية لمحتويات المعرفة العلمية هو يحتاج لاصطلاح «العقل الجمعي»».[36]

وبالنتيجة، يؤسّس فليك تصوّره لنشأة الواقعة العلمية وتطوّرها على فكرة مفادها أنه «لا يجب على نظرية المعرفة، أن تعتبر فعل التفكير علاقة ثنائية بين الذات المُفكّرة والموضوع، بين العارف وما يريد معرفته، يجب أن تكون حالة المعرفة آنذاك هي الطرف الثالث في هذه العلاقة، باعتبارها المحدّد الأساسي لأي معرفة جديدة».[37] يلعب العقل الجمعي، بالنسبة لفليك، الناقل للتطور التاريخي لمجال فكري مخصوص، أي لحالة معرفية وثقافية محددة، وهذا يعني وجود أسلوبا خاصا من التفكير. كما أكّد أنّ العقل الجمعي يعطي العنصر المفقود للعلاقة التي يبحث عنها عالم اجتماع العلم.[38] ويستدلّ فليك للبرهنة على دور العقل الجمعي في تأمين المقبولية لواقعة علمية ما بمثال شودين (Schaudinn) أحد مكتشفي اللولبيات المسؤولة على مرض الزهري، إذ يقودنا هذا المثال إلى اعتبار أنّ التفاعل الإيجابي لجماعة الأشخاص الذين لديهم أسلوب تفكير مشترك هو الذي جعل اكتشاف شودن يأخذ وضعية المعرفة المبرّزة (certifiée) بما أنّ جماعته قبلت بها. ويربط فليك بين نشأة واقعة علمية وتطوّرها ووجود درجة مرتفعة من التماسك صلب العقل الجمعي. فحين ينشأ أسلوب تفكير مميز لأي جماعة تفكير (علم الفلك/علم الجرثوميات/الفيزياء/الرياضيات)، ينشأ أيضًا مزاج جمعي معين يقوي الروابط بين أعضاء الجماعة تلك، ممّا يحفّزهم على التصرّف وفق القواعد والمعايير العلمية التي تساعد على تحديد الحلول المقبولة. المثال الثاني الذي يذكره فليك لتأكيد فكرة ارتباط نشأة الواقعة العلمية بمعارف اللحظة الراهنة (السياق التاريخي) هو العلاقة بين [تجربة] ردّ الفعل التي

35- Latour, Preface à L.Fleck, *Op., cit.,* p. 1.

36- *Ibid.,* p. 2

37- L. Fleck, *Genese*, *Op., cit.,* pp. 72-73

38- *Ibid.,* p. 75

أخذت اسم «فاسّرمانّ» (réaction de Wassermann) ومرض الزهري، فيقول: «لا بد من التأكيد على أن هذا الاكتشاف تمّ خلال فترة تاريخية فريدة من نوعها ولا يمكن إعادة انتاجها عبر التجربة ولا شرعنتها منطقيا. توجد أسباب اجتماعية ونفسية على حدّ السواء ونوع من التجربة الجماعية التي شكّلت ردّ فعل فاسرمان وجعلته يأخذ وضعية التجربة الصالحة (valide) على الرغم من الكثير من الأخطاء. فالعلاقة التي تربط ردّ الفعل فاسرمان بمرض الزهري - وهي حقيقة لا لبس فيها - هي من هذا المنظور ليست سوى حدث في تاريخ الأفكار».[39] وما يمكن فهمه من هذه الجملة، بحسب لاتور، أنّ ما يفلت من التفسيرات الاجتماعية والعقلانية على حدّ السواء: أن تُصبح الواقعة العلمية «حدث فكري».[40]

يختم لاتور قراءته لفكرة «العقل الجمعي» بالعودة إلى كون ويقول: «نرى أن تشبيه «العقل الجمعي» بـ «الباراديغم» هي فكرة غير مُوفّقة. إذا قرأ كون فليك جيّدا فقد تخلّى عن كلّ ما هو مهمّ، ليحتفظ من الباراديغم فقط بـــ «ما لا يمكن أن نفكّر فيه بطريقة أخرى». كلّ شيء يحدث وكأنّ الفيزيائي لم يستطع أو لم يشأ أن يفهم الفيزيولوجي. لا شيء في تعاقب الباراديغمات وفي الشذوذ ثمّ الثورات ما يتوافق مع تعقيدات السيناريو الذي يقترحه فليك لتفسير التجديد في العلوم. يتحدّث فليك فقط عن «الطفرة». لقد أعاد كون، إن جاز القول، تفسير وعقلنة ما اخترعه فليك. المرور من «العقل الجمعي» إلى «الباراديغم» هي عملية إفراغ «الحدث الفكري» من كلّ هذه التفاعلات، وجعلها فكرة مبتذلة على طريقة فوكو. مع كون نعود إلى كانط ودوركهايم. مع فليك نذهب إلى مكان آخر».[41]

ولكن تفسير لاتور لا يخلو من بعض التناقض؛ إذ إنّه لا يمكن إنكار انّ الأطروحة الرئيسة لكتاب فليك هي أنّ المعرفة لا تظهر إلاّ ضمن «عقل جمعي» أي «جماعات الأشخاص الذين يتبادلون الأفكار ويتفاعلون فكريا».[42] وبهذا المعنى لا تُنتَج المعرفة إلاّ ضمن إطار جماعي، ممّا يجعل وجود «العقل الجمعي» - بحسب فليك - أكثر صلابة واستقرارا وانسجاما من الفرد الذي يكون غالبا منظّما بواسطة غرائز متناقضة.[43] وبصورة أكثر تحديداً فإنه لن يكون هناك من معنى ولا من قيمة جوهرية بالنتيجة لأي واقعة علمية خارج ما يقوم عليه العقل الجمعي لحقيقة ما. وبحسب فليك، فإنّ الواقعة العلمية تنبع آليا من شروط اجتماعية؛ أي من نسق التصنيف وإعطاء الدلالات الذي يُقدّمه العقل الجمعي. إنّ لاتور بدفاعه عن هذه الأطروحة وضع نفسه في الموقع الفريد لمن عليه أن يُنتج تحاليل دقيقة حول الطريقة التي جرى فيها استخدام فليك لمفهوم العقل الجمعي ويُعلن في ذات الوقت أنّ مفاهيم كون الذي ينتمي إلى تخصّص علمي آخر هي لاقياسية. ممّا جعله يسقط في تمجيد للغيرية، وهو تمجيد لا يحافظ على التوازن الذي لا غنى عنه لإعادة بناء شروط

39- *Ibid.*, pp. 169-170

40- Latour, Preface à L.Feck, *Op., cit.*, p.5

41- Ibid.,

42- L.Fleck, *Genesis, Op., cit.*, p.38

43- *Ibid.*, p.44

فهم نشأة وتطوّر نظرية علمية ما؛ ذلك أنّ التفسير المعتدل لتلك المفاهيم يعني إعادة قراءة العلاقات بين جماعات علمية متنافسة: تاريخ العلوم من جهة وعلم اجتماع العلم من جهة أخرى. وإن صدّقنا افتراض لاتور أنّ نظرية كون حول البارادايغم نبعت من فكرة فليك حول العقل الجمعي، فمن العادي أن تستوعب كمية كبيرة من القاموس والعدة المفاهيمية كما العلمية التي استعملها فليك، غير أنه ليس ضروريا أن يكون لتلك الاستعارات طريقة الاستخدام نفسها. وهذا ما يسميه كون نفسه سوء تفاهمات (malentendus) بين المدارس المتنافسة. وبالنسبة إلى كون، فإنّ أعضاء الجماعات العلمية المرتبطين ببارادايغمات متعاقبة لا يستطيعون التفاهم إلاّ بصورة جزئية؛ لأنه لا يوجد لغة حيادية يمكن أن تستخدم «لترجمة» أمينة لمفاهيم بارادايغم ما بمفاهيم بارادايغم آخر.

ومع ذلك، لا تكمن أهمية فليك بالنسبة إلى لاتور في فكرة «العقل الجمعي»، بقدر ما تكمن في الأطروحة الثانية التي تتمثّل في اعتقاد فليك في أنه يذهب أبعد من جميع علماء الاجتماع الذين استشهد بهم (دوركهايم وليفي بريل) ويطبق التحليل العلمي الاجتماعي على العلم، باعتباره نشاطًا فكريًا مثل أي نشاط آخر. حيث يقول فليك متحدّثا على دوركهايم وبريل: «يرتكب هؤلاء المفكرين خطأً مميزًا: المبالغة في احترام الوقائع العلمية، لدرجة أنّهم أضفوا عليها نوعا من التقديس الديني».[44] ويضيف مدافعاً على أطروحته الأولى «تبرز خصوبة نظرية العقل الجمعي، في الامكانية التي توفّرها لمقارنة الأفكار البدائية والقديمة والطفولية والذهانية وتحليلها بطريقة موحّدة».[45]

3) الأطروحة الثانية: نشأة وتطوّر الواقعة العلمية

يقول كون في مقدّمة الترجمة الإنجليزية: «لمّا قرأ صديقي الألماني جيمس كونان(James Conant)، وهو آنذاك رئيس جامعة هارفارد، عنوان كتاب فليك، قال لي: «كيف يمكن لهذا الكتاب أن يكون؟ الواقعة هي الواقعة، ليس لها نشأة ولا تطوّر»[46] ويعلّق كون «هذه المفارقة جذبتني نحو الكتاب».[47] ما لفت انتباه كون هو عنوان الكتاب، يقول «أدركت على الفور أن كتابًا يحمل مثل هذا العنوان من المرجح جدًا أن يتحدث عن اهتماماتي الخاصة».[48] ويشرح قائلا: «قبل عامين أو ثلاثة من قراءة هذا الكتاب كان لدي «حدس» يتعلق بدور الثورات العلمية في تاريخ العلوم (...) وقد جعلني هذا الكتاب أطمئن لما يتعلّق بصحة حدسي».[49] يبدو أنّ فكرة أن يكون للواقعة العلمية نشأة وتطوّر كانت مثيرة بالنسبة إليه، خاصة بعد ملاحظة

44- L.Fleck, *Genisis*, *Op., cit.,* p.46-47

45- *Ibid.,*

46- Khun, *Foreword*, *Op., cit.*, p. viii.

47- *Ibid.,*

48- *Ibid.,*

49- *Ibid.,* p. vii-viii.

صديقه الألماني حول عنوان الكتاب. إنّ الواقعة العلمية لدى فليك هي شيء يُفترض أن يكون مُحدّداً، دائماً، ومُستقلاً عن كلّ تفكير ذاتي. وهو يقترح رؤية غير مسبوقة للواقعة العلمية، وللنشاط العلمي عموماً، وهي رؤية تنتظم بشكل أساسي حول المقولة المسمّاة «أسلوب التفكير» الذي يُعرّفه فليك بأنه «الاستعداد للإدراك الموجه، مع الاستيعاب العقلي والموضوعي المقابل لما تم إدراكه على هذا النحو، ولديه ملامح مشتركة مع العقل الجمعي، بما يعتبره العقل الجمعي بديهيا، وبالأساليب التي يستخدمها للإدراك. وقد يأخذ أسلوب التفكير أسلوبا فنيا وأدبيا مميزا لنظام معيّن، لمعرفة مُعينة (...) هو يقيّد الفرد من خلال ما لا يجب التفكير فيه بطريقة أخرى».[50] كما يعتبر أنّ العملية العلمية المعرفية ليست علاقة بين طرفين. إنها فعل جمعي تكون فيه الجماعة شريكاً أساسيا من خلال الاستخدام الضمني لأسلوب تفكير يجد أصله في المجال الثقافي -الاجتماعي. كما يرفض فليك تصنيف التفكير إلى بدائي وعلمي لسبب بسيط: فالعلوم كانت دائما، من وجهة نظر أولئك الذين يتشاركونها، منظمة ومُثبتة وقابلة للتجريب، وأي نظام آخر للمعرفة، هو حسب رأيهم غير مثبت وغير قابل للتطبيق وخيالي أو صوفي. ونجد هنا أحد المبادئ الأربعة التي وضعها دافيد بلور في برنامجه القوي وهو مبدأ التناظر، وقد أطلق عليه فليك تسمية «المنهج المقارن» الذي يقطع مع القسمة بين «خطأ» و«صواب». لهذا السبب (بحسب لاتور)، فإن نظرية فليك تلك «تلامس نوعا من النسبية التي تجعل المرء يرتجف حين يقول بعدم وجود «حرية تجاه المشاعر في حد ذاتها، ولا عقلانية نقية على هذا النحو، فكيف يمكننا حتى أن نلاحظها؟ لا يوجد سوى تناغم أو اختلافات في المشاعر؛ فالعقلانية - بعبارة أخرى - ليست سوى حالة مُستقرّة للاّ-عقلانية، أي نقطة «ثابتة»، وهي «عادة في التفكير» كما يقول فليك».[51]

ويبين لاتور أنّ ما يميز فليك على مؤرّخي العلوم هو استعارته مصطلحات تفلت تماما من التفسير الاجتماعي للعلوم: النسيج، والسحب، والتشابك، والتعقيد، والدوران، والتجربة والخطأ، والتعرّج، والأخلاق، وخطوط التطوير، والأسلوب وحتى الشبكة: شبكة في حالة تقلّب مستمرّة نُسميها الواقعة أو الحقيقة. في حين أنّ المصطلحات التي يستخدمها علم الاجتماع والتاريخ الاجتماعي للعلوم يتمّ استعارتها ضمن قوالب تُعطي شكلا للواقع الاجتماعي التي تأتي مباشرة من كانط. وفي حين أنّ التصنيف بالنسبة إلى الكانطيين والنيو-كانطيين يُخبر عن تشكّل ما قبلي لمعطيات إمبيريقية، فإنّ التصنيف لدى فليك يُظهر إمكانيات جديدة داخل الوقائع. ولهذا السبب، فإنّ الوقائع بالنسبة إليه ليست بسيطة ونهائية وغير قابلة للجدل، ولا تبنيها نظرية أو حكم مُسبق من شأنها أن تتحكّم فيها. فالواقعة بالنسبة إلى فليك هي ما هو الأكثر تعقيدا وعدم استقرار وجدّة، ما هو الأكثر ثراء والأكثر جمعيًا، ما هو جاهز للمناقشة. بهذا المعنى فهو، على حدّ تعبير لاتور «لا يعادي الامبريقية، ولكنه يرفض اختزال الإمبريقية في اتصال ثنائي بين فرد وعالم من الإحساسات والإدراكات والتصورات النقية مثل ما يقترحه الفيلسوف التجريبي الحسّي جون لوك (Locke) عن الفهم الإنساني للواقع الخارجي. وبذلك يقترح فليك مسارا جديدا للامبيريقية وتقاليدها، ويبدو أنّ مصطلح الإمبيريقية

50- Fleck, *Genisis, Op., cit.*, p.99

51- Latour, *Preface à Fleck, Op., cit.*, p2

الجماعية مناسبٌ له. وبدلا من الحديث عن التجربة يستعمل فليك هذا التعبير الرائع (في الترجمة الفرنسية) «اكتساب التجربة» كما لو أنّ المجتمع العلمي يتأكّد تدريجيا عبر «تجربة جماعية» من خصائص الواقعة العلمية التي تمت مناقشتها».[52]

II. ملاحظات أولية حول منهجية فليك

قدّم لاتور قراءة لفليك ركّز فيها على أسبقية هذا الأخير على توماس كون وريادته في علم اجتماع العلوم البنائي، ومن جهته قدّم كون قراءة لفليك مُبرزا أهمية ما اكتشفه فليك بالنسبة إلى نظريته التي وضعها في كتابه **بنية الثورات العلمية**، مُعتبرا أنّ الصدفة التي جعلته يكتشف كتاب فليك هي رسالة من السماء تدعم حدسه. ويمكن تحليل السجال بين كون ولاتور ليس فقط انطلاقا من الانتماء التخصّصي لكلّ واحد منهما، وإنما أيضا انطلاقا من أنّ فكرة العقل الجمعي التي كان لاتور يرغب في تقديم مساهمته لدعمها، والتي كانت قد اشترطت طبيعة تحليل فليك لنشأة وتطوّر الواقعة العلمية، كانت في تحليل كون فكرة مُنفّرة لارتباطها بعلم النفس الفردي «الخطأ يكمن في اعتبار المجموعات أفراد مدفوعين إلى أقصى الحدود أو اعتبار الأفراد مجموعات صغيرة».[53] ولعلّ ما جعل كون يؤكّد على موقفه النقدي لفكرة العقل الجمعي هو ارتباطها بنظرية «سيكولوجيا الجماهير» التي طوّرها الطبيب والمؤرّخ الفرنسي جوستاف لوبون (Gustave Le Bon) الذي اشتهر بكتابه «الجماهير: دراسة في العقل الجمعي» وقد استشهد به فليك في كتابه لتفسير فكرة «تناغم الأوهام» باستعمال ما يسميه لوبون «الهلوسة الجماعية».

وفي جميع الأحوال، فإنّ المجادلات التي أثارها لاتور وكون حول كتاب فليك تركّزت بشكل رئيس حول مسألة الصلة بين العقل الجمعي ونشأة الواقعة العلمية وتطوّرها؛ أي العلاقة بين مقبولية الاكتشاف العلمي وراهن المعرفة العلمية التي تشكّل ضمنها ذاك الاكتشاف. وبسبب أهميتها، فقد أسهمت هذه الأطروحة في حجب جزء مهمّ من عمل فليك: أي ذلك الجزء تحديدا الذي يتعلّق بالمنهجية التي أخذت طابعها من خصوصية العلم الذي يبحث فيه فليك.

1) الممارسة المضاعفة: علم العلم

حين نعود إلى كتاب فليك، ونتعهّد بقراءته بلغته الخاصة في سياقه التاريخي والاجتماعي بعيدا عن المَوْقفَيْن القصويين: موقف الاستيعاب وموقف الاحتفاء، بكلّ ما للكلمتين من معنى؛ حينها سنكتشف أنّ فليك له طابعه الخاص به؛ فهو من الناحية المنهجية يتميز على بوبر وباشلار وأيضا على كون، بأنّه لم يتلقّ تكوينا نظريا في اختصاص فلسفة العلوم وتاريخها، وإنّما هو ممارسٌ للبحث العلمي. وبالفعل، فإنّ أسلوب

52- *Ibid.*, p.4

53- T.S. KUHN, « Afterwords » (1990), in *The road since structure*, p. 141

دراسة فليك لا علاقة له البتة بأسلوب الكتابات النظرية، فهذه الأخيرة لا تُقدّم أي حلّ بسيط أو نهائي لمسألة التعيين الاجتماعي للعلوم، وهو أيضا يختلف منهجيا على لاتور الذي يُعاين العلماء وهم يشتغلون داخل المُختبر؛ أي عدم المشاركة في الثقافة النظرية والعلمية نفسها للفاعلين المُعاينين-وهو ما يُطلق عليه الجهل المنهجي. إنّ فليك يشتغل داخل المخبر الخاص به ويُجري عمليات زراعة للأنسجة المصابة والسليمة، ويكتب بروتوكولات التحليل الجرثومي، ويسأل نفسه دون الابتعاد عن منضدة المختبر، حول ما يفعله، وحول الشروط العامة لنشاطه العلمي. وهذا دفعه إلى تطوير طريقة تفكير أصيلة واستثنائية حول ما يسميه «علم العلم»، وهي صيغة تنظر إلى العلم ليس باعتباره ثمرة فعل عقلاني، وإنّما باعتباره نشاطا يوميا؛ وهذا يفترض بحثا والتزاما واهتماما. ولعلّ هذا ما يقدّم فليك عنه مثالا دقيقا حين يسحب آراءه عن «مقاومة الأفكار» على المجال الذي يشتغل عليه يوميا وهو مجال بيولوجيا الدمّ. فهو يقيس نقاط قوته ونقاط ضعفه وما يجعله يتقدّم أو يتأخّر، ساعيا في نفس الوقت إلى التفكير فيما يسميه «أزمة الواقعة»-حتى نستخدم عنوان إحدى مقالاته الأولى التي نشرها سنة 1929-. إنّ التفكير استنادا للتجربة الميدانية والممارسة اليومية لما يُمكن مُعاينته من «الواقعة العلمية» مثّل بالنسبة إلى فليك فرصة مهمة لتطوير جهاز مفاهيمي نُحت في الميدان. وهذا ما عبّر عنه لاتور بوضوح في مقدّمة الترجمة الفرنسية حين أبدى إعجابه بمصطلح «تحصيل التجربة» (gagner de l’expérience) وأيضا مصطلح «عادات التفكير» (Habitudes de pensée) و«تركيبة التفكير» (configuration de pensée).

يقدم فليك من خلال هذه المقاربة فكرة أولية عن التجديد في أنماط التفكير، الذي حتى يكون مدعوما بتجربة حقيقية للظواهر المدروسة، يفتح على جهد في التنظيم الذي يقوم بدفع تنسيقه إلى أقصى حد ممكن. لا شكّ أنّ هذا التنسيق قابل للنقاش وقابل للتنميق، بسبب طابعه التفصيلي والصريح والمُفكّر فيه، لكنه يسمح بتسليط الضوء على المداخل والمخارج التي تكون مرئية في البحث وهو بصدد الاشتغال، ويسمح أيضا بالإمساك بالمصاعب التي يواجهها والأسئلة التي تثيرها دون الادعاء بتقديم إجابات نهائية. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا التنسيق النظري خالٍ من أي خطاب علمي مُقعّد ومُقنّن؛ إذ تميزت تحليلات فليك بالبساطة والوضوح ممّا يجعل محتواه مُتاحا ليس فقط للمختصّين المطلعين الذين يتحاورون بلغة مقصورة على فئة مُعيّنة، وإنّما هو في متناول أي شخص مهتمّ بإشكاليات المعرفة العلمية ويولي لها اهتماما خاصّا.

2) تداخل الذاتي والموضوعي

لم يكن فليك ممارسا لاختصاص علمي يُشبه بقية الاختصاصات: فهو يبحث في علم الأحياء والحياة وهو اختصاص له خصوصياته ورهاناته؛ ذلك أنّ اهتمامات علوم الأحياء مشحونة ببعد عاطفي قوي على عكس الرياضيات وعلوم الفيزياء والعلوم غير العضوية بشكل عام. ولا يمكن مُقاربة نظم الأحياء دون الشعور بالخوف والألم والوجع، مما يجعل من الصعوبة بمكان تبني موقف الموضوعية العلمية التي ترتكز على الفصل بين النظرية والممارسة، بين همّ فهم الشيء كما هو، والرغبة في تغييره. إنّ فليك ممارس لتقنية

لها علاقة مباشرة بعلم الأحياء، لكن عمله لا يتمفصل مع الاحتياجات أو الاهتمامات التي تُعتبر ضرورية من الناحية العملية كما الحال بالنسبة للطبيب المباشر الذي يُعالج ويُخفّف الألم. وهذا يُضفي على ممارسته العلمية بعدا عمليا مُضاعفا؛ أي ممارسة للمعرفة بنفس طريقة الرياضيات والفيزياء دون إهمال جوانبها الانسانية وتأثيراتها على الحياة العملية، إذ لا يمكن وضعها بين ضفرين بقرار فكري بسيط.

إنّ «الواقعة العلمية» التي تمحور حولها تفكير فليك هي من نوع خاص، فهي تتعلّق بعلم الأمصال (sérologie) ومن خلاله علم الأوبئة، وهو تخصّص لا يهتمّ بالأفراد وإنّما بمجتمع مصاب بظواهر تكون طبيعتها المرضية واضحة على الفور، إضافة إلى كونها تنطوي على مخاطر تُهدّد ذاك المجتمع بالدمار الكلّي أو الجزئي. فعَالِم الأوبئة يتعامل مع مظاهر طبيعية تحمل معها الشرور والمخاطر التي عليه أن يحتويها على الفور، ممّا يدفع فليك إلى توجيه تفكيره نحو معرفة ما هو بالضبط معنى الشرّ؟ وإلى أي مدى يمكن رفع معنى الشرّ إلى مستوى «الواقعة العلمية»؟ ولعلّ هذا الأمر هو ما دفعه إلى أن يضع في بداية بحثه تساؤلا حول مفهوم «الوحدة التصنيفية» التي تُستخدم لإعطاء الواقعة معنى سلبيا في البداية، ثمّ معنى الاستقرار الظاهر وأخيرا معنى الايجابية.

جمع فليك في كتابه، إذن، بين تجربته العلمية، وتأملاته في تاريخ الطب، وأفكار من الفلسفة وعلم الاجتماع. وعلى ضوء رؤيته الخاصة لعلم الاجتماع وفلسفة العلم، استنتج أنّ الباحث يحتاج أولاً أن يتساءل عن «العقل الجمعي» الذي ينتمي إليه وعن «أساليب التفكير» التي يتمثّلها. وهذا ما يجعلنا نطرح السؤال التالي: هل يمكن للمعاينة في مجال علمي مخصوص (البيولوجيا)، له أسلوبه الخاص في التفكير، أن توفّر الأساس الإمبريقي لعملية تعميم فيما يتعلّق بالنشاط العلمي كما يهدف مشروع فليك «علم العلم»؟ ذلك أنّ فليك حين يكرّس اهتمامه لدراسة «نشأة وتطوّر الواقعة العلمية»، كما هو عنوان كتابه، فإنّ هذه الواقعة ليست مجرّد واقعة، وليست واقعة كبقية الوقائع، إنها واقعة ذات طبيعة خاصة للغاية، ولا يمكن مواءمتها مع تلك الوقائع في الرياضيات والميكانيك والفيزياء وأيضا في علوم الإنسان والاجتماع. إنّ صياغة هذا التساؤل لا يعني أنه اعتراض من شأنه أن يُبطل النتائج التي توصّل إليها فليك، ولكنّ الهدف هو لفت الانتباه إلى أنّ طبيعة المعرفة العلمية نفسها ومشاركة فليك لثقافة الفاعلين المعاينين جعلاه قادرا على الوصول من منظور ذاتي مخصوص به إلى عقلانية سلوكهم.

وباختصار، فإنّ مقاربة العلوم من زاوية نظر علم الاجتماع، والمجسّدة بما يقترحه فليك، قد تمثّل المدخل الأفضل لمحاورة ومفاوضة المقاربات الأولى لدراسة المعرفة سوسيولوجيًا، سواء تلك التي قام بها دوركهايم ومارسيل موس وليفي-بريل، أو تلك التي كانت جرت في ألمانيا خلال الحقبة نفسها، والتي تدخل ضمن الإطار العام لسوسيولوجيا المعرفة التي طوّرها ماكس شيلر، أو تلك التي أسسها روبرت كينغ مرتون في أربعينيات القرن العشرين والتي تمحورت حول دراسة مأسسة العلم وتحليل بنيته المعيارية، وصولا إلى ما يقترحه دافيد بلور في برنامجه القوي في نسخته الأكثر راديكالية التي طوّرها برونو لاتور

وستاف فولغار في أوروبا خلال نهاية سبعينيات القرن العشرين ضمن ما أطلق عليه تسمية علم اجتماع العلوم البنائي.

وحتى يكون النقاش صلبا ومُتماسكا نظريا ومنهجيا، نرى أنّه لا بدّ للباحث في علم اجتماع العلم من الاطلاع على الجزء الأهمّ من أعمال فليك، وهو ذاك الذي نشر بعد **نشأة وتطوّر الواقعة العلمية**، حيث حاول فليك القيام بنقلة إبيستيمية[54] ونشر في هذا الصدد ورقتين بالبولندية: الأولى عنوانها «مشاكل علم العلم» (1946) «Problems of the Science of Science»[55] والثانية عنوانها «أن تنظر، أن ترى، أن تعرف» (1947) «To Look, To See, To Know»[56]. وقد يكون الأهمّ من هذا وذاك هو قراءة آخر مقالاته الفلسفية التي كتبها باللغة الإنجليزية قبل وفاته بسنة وعنوانها «الأزمة في العلوم، نحو علم حرّ وأكثر إنسانية» «Crisis in Science. Towards a Free and More Human Science».[57]

54- Cackowski, Zdzisław, « L›épiśtémologie de Ludwik Fleck », *Dialectique et humanisme*, 3: 1982, pp 11-23.

55- L. Fleck, «Problems of the Science of Science», in R.S. Cohen et Th. Schnelle (eds.), *Cognition and Fact. Materials on Ludwik Fleck*, Dordrecht: D. Reidel, 1986, pp. 113–128

56- L.Fleck, « To Look, To See, To Know » in R. S. Cohen and Th. Schnelle (eds.), *op., cit.*, pp. 129–152

57- L.Feck, « Crisis in Science. Towards a Free and More Human Science », in R. S. Cohen and Th. Schnelle (eds.), *op., cit.*, pp. 153–158

المراجع

Latour, Bruno, « Transmettre la syphilis, partager l'objectivité », préface à L. Fleck, *Genèse et développement d'un fait scientifique*, (trads.) Nathalie Jas -préface de Ilana Löwy, postface de Bruno Latour. Paris: Les Belles Lettres, 2005

Ludwik Fleck, *Genesis and Development of a Scientific Fact*, Edited by Thaddeus J. Trenn and Robert. K. Merton: (trans.) Fred Bradley and Thaddeus J. Trenn ; Foreword By Thomas Khun, Chicago: University of Chicago Press, 1979

https://worldpece.org/sites/default/files/artifacts/media/pdf/fleck_et_al._-_2008__genesis_and_development_of_a_scientific_fact.pdf

Braunstein, Jean-François. « Thomas Kuhn lecteur de Ludwik Fleck », *Archives de Philosophie*, vol. 66, no. 3, 2003, pp. 403-422

https://doi.org/10.3917/aphi.664.0403

Sady, Wojciech, "Ludwik Fleck", *The Stanford Encyclopedia of Philosophy* (Winter 2021 Edition), Edward N. Zalta (ed.),

URL: https://plato.stanford.edu/archives/win2021/entries/fleck/.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2023

جميع الحقوق محفوظة © 2023